

تفسير القرآن الكريم المرئي - سورة النبأ ٠٧٨ - الدرس (٢) : تفسير الآيات ٤ - ١٦ ، الآيات الكونية والتكوينية تدل على أن خلق الإنسان ليس عبثاً .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٦-٠٦-٠٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته الغر الميامين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارض عنا وعنهم يا رب العالمين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

التفصيل في الآيات الكونية والتكوينية يدل على أن خلق الإنسان ليس عبثاً :

أيها الأخوة الكرام ؛ مع الجزء الثلاثين من القرآن الكريم ، ومع السورة الأولى منه وهي سورة النبأ ، ومع قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا * إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾

[سورة عم : ٦-١٧]

سؤال : بادئ ذي بدء ، ما علاقة هذه التفاصيل من الآيات الكونية والتكوينية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾

[سورة عم : ١٧]

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾

[سورة الأحزاب: ٧٢]

فلما قبل حمل الأمانة كان عند الله



المخلوق الأول ، و المخلوق المكرم ، والمخلوق المكلف ، كلفه بالعبادة ، هذا الإنسان كيف يعرف

الله عز وجل ؟ الكون هو الثابت الأول ، هذا الكون يدل على وجود الله ، وعلى وحدانيته ، وعلى كماله ، فحينما ترى هذه الآيات العظيمة الدالة على وجوده ، وكمالته ، ووحدانيته ، مما يقتضيه المنطق السليم أن هذا الخلق ليس عبثاً ، قال تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾

[سورة المؤمنون : ١١٥]

وهذا الخلق هناك حساب دقيق له يوم القيامة ، تستنبط من هذه الآيات العظيمة الدالة على كماله أن هناك مسؤولية ، وأن هناك حساباً يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾

[سورة عم : ١٧]

خلق الله وأفعاله وكلامه قنوت سالكة لمعرفته :

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾

[سورة عم : ٦]



أي ممهدة لحياة الإنسان ، فيها هواء نستنشق ، وفيها ماء نشربه ، وفيها طعام نأكله ، هذه الأرض مصممة لهذا الإنسان ، وفيها تربة قابلة للزراعة ، وفيها محاصيل القمح والشعير وما إلى ذلك ، وفيها خضراوات ، وفيها أشجار مثمرة ، وفيها أنهار ، وفيها بحيرات ، وفيها بحار ، وفيها أشياء لا تعد ولا تحصى فوق الثرى ، وفيها ثروات تحت الثرى ، قال تعالى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾

[سورة طه : ٦]

وفيها جيوب مائية تحت الثرى ، وفيها معادن ، وفلزات ، وثروات ، وبتترول ، وغازات ، إذاً هناك آيات دالة على عظمة الله ، والآية :

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة الجاثية:٦]

معنى ذلك أن الآيات الكونية خلقه ، والآيات التكوينية أفعاله ، والآيات القرآنية كلامه ، خلقه وأفعاله وكلامه هي قنوات سالكة لمعرفة ، وأصل الدين معرفة الله عز وجل ، والإنسان حينما يعرف الأمر ثم يعرف الأمر يتفانى في طاعة الأمر ، أما إذا عرف الأمر ولم يعرف الأمر يتفنن في التفلت من الأمر ، وكأنني وضعت يدي على مشكلة المسلمين الأولى .

التفلت من أمر الله مشكلة المسلمين الأولى :

الله عز وجل يقول :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

[سورة النور : ٥٥]

وأنا أنطلق في دعوتي من أن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، إذاً :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

[سورة النور : ٥٥]

هل نحن مستخلفون في الأرض ؟

الجواب : لا ، قال تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ
دِينَهُمْ ﴾

[سورة النور : ٥٥]

هل هذا الدين العظيم ممكن في الأرض

؟ الجواب : لا ، و زوال الكون أهون



على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، قال تعالى :

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾

[سورة النور : ٥٥]

فنحن لسنا مستخلفين ، ولسنا ممكنين ، قال تعالى :

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

[سورة النور : ٥٥]

ولسنا آمنين ، هذه الحقيقة المرة ، إذا أين الخلل ؟ ما السبب ؟ ما التفسير ؟ ما التعليل ؟ كيف نفهم أن هذه الوعود التي زوال الكون أهون على الله من ألا تحقق ؟ كيف نوفق بين عدم تحقق وعود الله لنا وبين هذا الكون العظيم والذات الكاملة الإله الموجود والواحد والكامل ؟ لذلك هنا تكمن المشكلة .

آخر كلمة في الآية الطويلة ، قال تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي ﴾

[سورة النور : ٥٥]



ما العبادة ؟ العبادة علة وجودنا ، سبب وجودنا ، أي حينما يرسل أب ابنه إلى باريس لينال الدكتوراه من السوريين ، مدينة كبيرة عملاقة ، مترامية الأطراف ، فيها دور سينما ، وفيها جامعات ، وفيها أسواق ، وفيها متاجر ، وفيها حدائق ، وفيها قصور ، هذه المدينة العملاقة ، هذا الطالب الذي أرسله أبوه إلى هذه المدينة لينال الدكتوراه من السوريين

نقول : علة وجود هذا الشاب في هذه المدينة شيء واحد هو الدراسة ، فإذا غفل هذا الطالب عن علة وجوده ضلّ ، وأخفق ، وخسر دنياه وآخرته ، لذلك المؤمن علة وجوده في الدنيا واضحة كالشمس ، هذه العلة تشبه إنساناً يرى هدفه الواضح ، قال تعالى :

﴿ أَفَمَنْ يَمْتَشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْتَشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[سورة الملك : ٢]

إنسان تعرف إلى الله ، وتعرف إلى منهجه ، واتخذ قراراً بطاعته ، والتقرب إليه ، قال تعالى :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾

[سورة السجدة : ١٨]

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

[سورة الجاثية : ٢١]

مستحيل وألف ألف مستحيل ، قال تعالى :

﴿ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾

[سورة الجاثية : ٢١]

أيضاً مستحيل ، قال تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

[سورة النور : ٥٥]

لسنا مستخلفين ، ولسنا ممكنين ، ولسنا آمنين ، والكرة في ملعبنا ، والخلل عندنا ، لأننا قصرنا في عبادة الله عز وجل .
التفقت من أمر الله

الدين الإسلامي العظيم دين جماعي و فردي :

لذلك أيها الأخوة ؛ هذا الدين العظيم دين جماعي ، ودين فردي ، جماعي وفردي بمعنى أن الفرد الواحد من المسلمين لو طبق أحكام هذا الدين لقطف ثماره الفردية ، وأن هذه الأمة الإسلامية لو طبقت هذا الدين لقطفت ثماره الجماعية ، الأمة إذا طبقته ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

[سورة الأنفال: ٣٣]

أي يا محمد - صلى الله عليه وسلم - ما دامت سنتك قائمة في حياتهم ، فهم في مأمن من عذاب الله ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

[سورة الأنفال: ٣٣]

إذا عندنا وعود للأفراد ، قال تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتُمْ ﴾

[سورة النساء: ١٤٧]

فإذا شكر الفرد المسلم ، شكر ماذا ؟ شكر أنه موجود ، الحمد لله على نعمة الإيجاد، قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾

[سورة الإنسان: ١]

إذا أخ كريم أمسك كتاباً ليقراه ، ولفت نظره أن تاريخ تنضيد حروفه قبل ولادته ، فأثناء تنضيد حروف هذا الكتاب أين كنت أيها القارئ ؟ لم تك شيئاً مذكوراً ، ليس لك وجود أصلاً ، قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾

[سورة الإنسان: ١]





الله عز وجل تفضل عليك بنعمة الإيجاد ، أوجدك فأصبحت شيئاً مذكوراً ، وأمدك بالهواء والماء والطعام والشراب والأم والأب ، وتلقيت تربية من أقرب الناس إليك ، هذه نعمة ثانية ، نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، سمح لك بوجودك ، كان النبي صلى الله عليه وسلم من سننه العملية أنه إذا استيقظ يقول : " الحمد لله الذي ردّ إليّ

روحي - أي سمح لي أن أعيش يوماً آخر ، استيقظ نهض من الفراش ، توجه للوضوء توضأ ومشى ، يرى ويسمع - وعافاني في بدني ، وأذن لي بذكره ."

منحك نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، لذلك الإنسان أمام كون ، هذا الكون يشف عن وجود الله ، وعن كماله ، وعن وحدانيته ، والله عز وجل أمدك بما تحتاج ، لذلك الأصل أن تؤمن به من خلال هذا الكون ، والأصل أن تشكره على نعمة الإيجاد والإمداد والهدى والرشاد ، فأنت أمام رد فعل ، الفعل الخالق منحك نعمة الإيجاد ، ومنحك نعمة الإمداد ، ومنحك نعمة الهدى والرشاد ، الأولى أن تشكره على نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، فلذلك أيها الأخوة ؛ قال تعالى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾

[سورة طه : ٦]

تهيئة الأرض للعيش عليها :

إذا :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾

[سورة عم : ٦]

أي ممهدة ، مهيأة ، فيها هواء نستنشقه ، وفيها ماء نشربه ، وفيها طعام وشراب نأكله ، وفيها أم وأب يعتنون بنا أعلى عناية ، وفيها مجتمع ، وفيها منهج ، وفيها قرآن ، وفيها وحي ، قال تعالى :



﴿ وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا ﴾

[سورة عم : ٧]

عندنا بالفيزياء مبدأ العطالة ، هذا المبدأ يعني أن الجسم المتحرك يبقى متحركاً ، والجسم الساكن يبقى ساكناً ، هذه الأرض تدور ، كل جسم له عطالة ، له سرعة دوران خاصة ، هذا الجبل حينما يكون مغروساً في الأرض يربط هذه الطبقات ، وتصبح عطالتها موحدة ، البيضة المسلوقة لو فتلتها تدور ، أما الغير مسلوقة فتقع ، فيها سائل وفيها جسم صلب ، البياض والصفار وكل جسم له عطالة معينة ، أما عند السلق فتصبح العطالة واحدة ، لماذا لا تضطرب ؟ لأن هذه الجبال أوتاد تربط الطبقات ببعضها ، فأصبحت الطبقات كتلة واحدة .

مساواة الرجل للمرأة في التكليف و التشريف و المسؤولية :

ثم قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾

[سورة عم : ٦-٨]

ذكر وأنثى ، والذكر والأنثى متكاملان وليسا متشابهين ، الشيء الثابت أن المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف ، وفي التشريف ، وفي المسؤولية ، لكن الله عز وجل يقول :

﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾

[سورة آل عمران : ٣٦]



أي خصائص الرجل الفكرية ، والجسمية ، والنفسية ، والاجتماعية ، كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به ، و خصائص المرأة الفكرية ، والجسمية ، والنفسية ، والاجتماعية ، كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها ، فلذلك المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف والمسؤولية ، ولكن قول الله عز وجل :

﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾

[سورة آل عمران : ٣٦]

إذاً خصائص المرأة الفكرية ، والجسمية ، والنفسية ، والاجتماعية ، كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها ، و خصائص الرجل الفكرية ، والجسمية ، والنفسية ، والاجتماعية ، كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به ، إذاً :

﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾

[سورة عم : ٨]

هناك تساو وهناك اختلاف ، قال تعالى :

﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾

[سورة آل عمران : ٣٦]

درسنا في الجامعة كتاباً لعالم فرنسي كبير اسمه بياجيه ، ألف كتاباً من ثمانمئة صفحة ، الفروق بين الذكور والإناث ، ولم أجد لهذا الكتاب عنواناً أليق به من قوله تعالى :

﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾

[سورة آل عمران : ٣٦]

آيات أخرى من آيات الله الدالة على عظمته :

ثم قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾

[سورة عم : ٩]

أي الليل ستر ، ستر وسكن ، هناك راحة ، حينما تغيب الشمس ، ويعم الظلام ، صار هناك سكون ، الله جعل النهار معاشاً للحركة ، والليل لباساً للنوم والسكون ، أما حينما تقدم العلم كثيراً وصنعت الكهرباء فصار ليل الناس نهاراً ونهار الناس ليلاً ، قد يستيقظون قبيل الظهر أحياناً :



﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾

[سورة عم : ١١-١٢]

سبع سماوات ، وكلمة سبعة تعني الكثير ، قد تكون أكثر من سبع سماوات ، قد تكون هذه السموات أكثر من سبعة ، كلمة سبعة في القرآن تعني الكثير ، سبعاً شداداً أي متماسكة ، قوية ، قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾

[سورة عم : ١٣]

الشمس سراج يمدنا بالضوء والحرارة معاً ، سراج ضوء ، وهاج حرارة ، قال تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾

[سورة عم : ١٤]

شديد الانصباب ، قال تعالى :

﴿ لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾

[سورة عم : ١٥]

الحب للإنسان والنبات للحيوان ، القمح المادة الأولى للتغذية ، قال تعالى :

﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾

[سورة عم : ١٦]

الأشجار ملتفة حول بعضها بعضاً ، والأغصان ملتفة حول بعضها بعضاً .

انتهاء الحياة بيوم يفصل فيه بين الحق و الباطل :



قال تعالى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾

[سورة عم : ١٧]

هذه الحياة لا بد من أن تنتهي بيوم هو يوم الحساب ،

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾

في هذا اليوم يفصل بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والأشياء ذات القيمة والأشياء تافهة القيمة .

والحمد لله رب العالمين